# تغريب الدلالة وفيض المعنى
# في شعر أبي مدين شعيب التّلمساني

د. خناتة ابن هاشم
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة تلمسان

لا يمكن أن نسم أية تجربة شعرية بالتميز إلا إذا حذقت منطق التغريبDefamilisation والتغريب هو القدرة على تجاوز ما هو منجز على مستوى المرجعية الفنية التي تصدر عنها تلك التجربة. وأول ما تتمظهر ظاهرة التغريب، تتمظهر في التمازج بين الرموز الغزلية ورموز الخمر والطبيعة في أسلوب تلويحي حافل بالعواطف المشبوبة والمضطرمة مما خلق في النص وحدة فنية خاصة ومميزة ومما يقع في صميم من التجربة الصوفية ويخصها. فكيف يتمظهر هذا التغريب على مستوى تجربة أبي مدين شعيب التلمساني؟.

يقف القارئ لقصائد الشاعر على الكيفية التي تتراسل بهاأغرا ض شعر لتتصاع للغرض الجوهري وهو فعل الحب، لتتصاع للغرض الجوهري وهو فعل الحب وليصبح النص الشعري مكونا لدائرة هذا الفعل، وهي دائرة تضيق وتتسع حسب طبيعة العلاقة التفاعلية التي تربطها بغيرها من النصوص كأن تكون نفيا كليا يعمد فيه إلى قلب المعنى الأصلي بمعنى آخر يناقضه. فينزع بالدّلالة نزوعا تأويليا تنزاح معه عن حقلها الأصلي لتأخذ بعدا تأويليا حافلا بالعواطف الدّينية المشبوبة. فتخرج الخمر عن منطق المحظور إلى مراح الإباحة ويزدهر رمز المرأة ويمتزج بالطبيعة وما تحفل به من مشاهد فلا تنفصل الطبيعة عن رمز الجوهر الأنثوي، كمالا تنأى المرأة عن الطبيعة في كليتها وشمولها. وتراسل هذه المراحات داخل السياق يجعل منها معنى شعريا جديدا تنداح عبره دوائر هذه المعاني وتتداعى كما تنداح الدّوائر تباعا حول مرمى حجر وسط الماء، ولكن لتظل مشدودة إلى مركز الارتطام وقوته انشداد الوتر إلى القوس، ومركز الارتطام هنا هو فعل الحبّ: الانفعال الأساس الذي تصنع الحقول الدّلالية الثلاث المرأة، الخمر، الطبيعة عروته الوثقى في أشعار المتصوفة الخمر رمز لأزلية المحبوب، الطبيعة مجلى من مجالية، كما المرأة وسيلة تهيب بجماله المطلق. وعبر

الروضة الغناء والنسيم الرقيق، وعرف المحبوبة في طيب نشره، الذي يسكر الحواس. . والحادي الذي جعل يغني للقافلة إذ يسوقها مترنما باسم المحبوبة، كل ذلك صور مستعارة من الشعر الغزلي الذي كلف بوصف الدّيار النائية. الرحلة المهلكة وما يعاني المحبّ من قطيعة وهجر حينا ووصال ولقاء حينا آخر ليتجلى التجاوز والغيرية والتفرد في هذا الذي ذكرنا من امتزاج الأبعاد تراسل الحقول الدّلالية بضرب من التأويل الرمزي عبر التركيب التخيلي للمحسوس.

كما تطالعنا اللّغة بالثنائيات الحادّة: الصحو والسكر، الفناء والبقاء، الغيب والشهادة، المحو والإثبات وكل هذه الثنائيات تكاد تصب في ثنائية كبرى هي الصحو والسكر كدلالة أقوى وأعمق.

وقد جاء في تعريف "القشيري"للصحو والسكر قوله: الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة، والسّكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر وطاب الروح وهام القلب وحلا المغنى "،

وقد تجلت هذه الخصائص الفنية للتجربة الفنية بكل وضوح في ميمية أبي مدين شعيب التلمساني التي نقتبس منها قوله:

**أدرهـا لنـا صـرفا ودع مزجهـا عنّـا فنحن أنـاس لا نـرى المـزج مـذ كنـا**
**وغـنّ لنـا فالوقـت قـد طـاب باسمهـا لأنـا إليهـا قـد رحلنـا بهـا عنّـا**
**عرفنـا بهـا كـلّ الوجـود ولم نـزل إلى أن بهـا كـل المعـارف أنكرنـا**
**هـي الخمـر لم تعـرف بـدن يخصهـا ولم يجلـها راح ولم تعـرف الـدّنا.**

**إلى أن يقول:**

**فقـل للّـذي ينهـى عـن الوجـد أهلـه إذالم تـذق معنـا شـراب الهـوى دعنـا**
**إذا اهتـزّت الأرواح شـوقا إلى اللّقـا نعـم تـرقص الأشـباح ياجاهـل المعنـى**
**كلّـك أرواح المحـبين يـا فتـى تهزهزهـا الأشـواق للعـالم الأسـنى.**

**إلى أن يقول:**

**تقـوّل (نـاس) قـد تملكـه الهـوى أجـل لسـت في ليلـى بـأوّل مـن جُنّـا**
**خفيـت بهـا عـن كـلّ مـا علِـمَ الـورى وأظهـر لبنـى والمـراد سـوى لُبنـى**
**وإنـي كمـا شـاء الغـرام موحـد وإن ملـت تمويهـا إلى الروضـة الغنّـا**

العدد 14 ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

دعا باسمها الحادي ونحن على الغضا فقلنا له بالله من ذكرها زدنا
فجاد إلى أن أهدت الركب نشوةً ونحن على الأكوار من طربٍ ملنا
لعمرك حتى العيس لذّلها السُّرى عجبت لشوق يشمل السَّهل
وحتى غصون البان ما لت ترنحا وغنّت عليها كل صادحة لحنا والحزنا
أهل عائد لي رقدة كي أرى بها خيال رسول زائرا مضجعي وهنّا
فإن جاءني بالقرب منها مبشرٌ وهبت له روحي سرورا وما أغنى
حيينا بها دهرا وقد حكمت لنا ونحن بها نحيا يقينا إذا متنا
فلست لدى لحالي تغييرا ولا مطرقا فكرا ولا قارعا سنا[1]

يجعل الشاعر للسكر عينا على الجمال على استملاح الغصن. والغصن ملمح طبيعي يحيل بدوره على دلالة الرشاقة والأنوثة والخصوبة وهنا دائرة تتسع لتنفي نفيا كليا ما يعمد إليه شعراء الغزل والخمر والطبيعة عبر « التركيب التخيلي للمحسوس عن عاطفة الحبّ في تجليها الثلاثي»[2] وإلى هذا التلويح الصوفي الذي يمتطي صهوة الحسية في الخمر ليدلف إلى معاني خاصة بأهل الأذواق الروحية يقول قائل مما أورده السراج [3]

كفاك بأن الصحو أوجد كآبتي فكيف بحال السكر والسكر أجدر
جحدت الهوى إن كنت مد جعل الهوى عيونك لي عينا تغض وتبصر

**نظـــــرت إلى شـــــيء ســــــواك وإنمـــــا   أرى غيرنـــــا أحـــــلام نـــــوم تقـــــدّر**

وقوله:

**لــــي ســــكران وللنـــدمان واحـــدة   شــيء خصصـت بـه مـن بيـنهم وحـدي**

الراسخة التي أقرها عمود الشعر على المستوى العربي وبين منجزات التصوف الإسلامي على مستوى فلسفة الخيال والتي تعرف أوج نضجها مع المتصوف، العارف:

"محي الدين ابن عربي". إذ منح المتصوفة للخيال قداسته في الوقت الذي كان فيه عند الغربيّين مجرد تعفّن في الإحساس على حدّ تعبير" هوبز". يرفض الشعراء الصوفة ذلك التفسير الميكانيكي للعالم الذي يلغي الوجدان الداخلي للإنسان وتجربته الروحية الجوانية،. وقد حاولت تجربة الشعر الصوفي من هذا المنطلق أن تتجاوز لغة العقل بمفهومها السائد إلى إطلاق فاعلية أوسع للقلب وكشفت عن طريق اللغة عن مناطق لا تحيط بها اللّغة.

ونلمس ذلك في الكيفية التي يرسم بها لشاعر صوره، فهو ينطلق من عالم المحسوسات كما يفعل غيره من الشعراء لكنه يتفرّد في تعامله مع العالم الحسّي لأن مايريد تصويره ليس محسوسا ولا معقولا. إنه يبحث من خلال عملية التصوير عن الوحدة التي يمكن له إقامتها بين العقلي واللا عقلي بين الغامض المجرّد، والواضح المحسوس. لكنه يضيف خطوة أخرى، هي إحالة هذا الغامض الذي تترجمه لغة الحسّ إلى بعد ثالث هو البعد الوجداني للصورة. والذي من شأنه وحده أن يصنع التوازن بين الأطراف المتباينة ويؤدّي الوظيفة المرجوة من الصورة. " فالأمور الحسّية هي عمال للمعاني وسندها وظروفها الخارجية، وهذه بالنسبة إلى تلك كاللغز بالنسبة إلى المعنى الملغز فيه [ولأنّ ]الجمع بين الحسّ والفكر في الإنسان أكمل وأعلى من انفراد الرّوح وحده... فلا نستغرب أن يتخذ أهل الأذواق المواجيد"جميع مظاهر الأشياء والأفكار والألفاظ والحركات رموزا للمقاصد الرّوحانية وإشارات إليها. وإليه قصد ابن عربي حين قال:

**كلّمـــا أذكـــره مـــن طلـــل   أوربـــــوع أو مغــــان كلّمـــــا**
**وكـــذا إن قلــت هـــا أو قلــت يـــا   وألا إذ جـــــاء فيـــــه أرمـــــا.**

نقرأ أبياتا غزلية تفيض بالميل وتتلوىّ بالإحساس وتتحرَق جوى وشوقا وذكرى، ومع ذلك ينبغي صرف هذه الأبيات عن ظاهرها والبلوغ إلى المعارف الربَانية وراءها. وإلى هذا التلويح الصوفي الذي يمتطي صهوة الحسية في الخمر ليدلف إلى معاني خاصة بأهل الأذواق الروحية يقول قائل مما أورده السراج.

**كفـاك بـأن الصـحو أوجـد كـآبتي فكيـف بحـال السـكر والسـكر أجـدر**
**جحـدت الهـوى إن كنـت مـد جعـل الهـوى عيونـك لـي عينـا تغـض وتبصـر**
**نظـرت إلى شـيء سـواك وإنمـا أرى غيرنـا أحـلام نـوم تقـدّر**

بغية تدمير كل ما هو من صميم الغرائز والاستعاضة عنه بالمطلق واللا محدود في غمرة التسامي إلى مشارف الإدراك الحدسي حيث لا مجال إلا لموجد النفس "الله نور السماوات والأرض " حيث يغمر نور الله كل شيء وتغمر نفس الصوفي غبطة بلا حدود فيستحيل ريشة في مهبّ نسمات عال الأنفاس والأرواح فينزلق العقل في بحران نشوة الوجد الإلهي حيث يسقط الفهم والتعقّل وتسكر النفس بمطالعة الجمال وشهود نورانيته وتبسط بالظفر بحقيقتها فتلقي أقوالا غريبة وعبارات غير مألوفة سرورا منها بمشاهدة الجمال، فتنساب سعيا إلى عالم يضيء بحبّ يغنيه عن الرّغبة في الجنّة أو الرّهبة من النّار ليحاور الحياة من ّذاك الموقع. ويستبعد خطرات السوء كالعجب والرياء بل ويخلص النية فيستبعد الخطرات جمبعا عدا وجه الله تعالى ومهما سمت الخواطر الباعثة فإنّه لا يطلب عوضا في الدّارين.

**يقول أبومدين:** عمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك، ليس للقلب إلا وجهة واحدة فمهما توجه إليها حجب عن غيرها وقال: إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذة مناجاته.

فيرسخ في تجربيه سعيه من أجل يقين أبدي متأملا حقيقة وجوده معمقا جدارته بالإنتماء إليه والمراد من هذا الانتماء "ربنا ما خلقت هذا باطلا" إنه إلحاح الشاعر عبر تجربته الصوفية على انتماء مثالي وتفاؤل بمآله وتبرم من واقع أفقدته رذائل البشر توازنه والشاعر إذ يعيش ذلك الوجد الفائض ينفس عن لظاه بالتغريد:

**ويـرقص في الأقفـاص شـوقا إلى اللقـا فتهتز أربـاب العقـول إذا غـني**
**كـذلك أرواح المحـبين يـا فتـى تهزهـزهـا الأشـواق للعـالم الأسـنى.**

وأول ما يستوقفنا، هذا التضاد الذي يشيعه الشاعر ليقبض من خلاله على هاتيك الأسرار الوجدانية لعالم الأذواق في شكل تقابلات ضدية وكأن الشاعر لا يملك أن يدرك الأشياء إلا في شرك التقابلات:

تضـيق بنـا الـدنيا إذا غبتمـوا عنـا وتـذهب بالأشـواق أرواحنـا عنـا

فالغياب سبب ضيق الدنيا وإزهاق الأرواح شوقا إلى الذي غاب والغيب ما استتر عن العيان. . . وسر الإنسان الذي هو غيب، له سر ثان، هو غيب مكنون يدبر أمره من قبل ثمّ من بعد.

فالغيب المكنون هو غيب المدبر لأمور المخلوقات" وهوا لحضور الذي يزهق الأرواح استتاره وبين قبضتي القرب والبعد يقبض الشاعر على معان أخر ما كان ليقبض عليها لولا هذا التقابل اللّغوي الذي هو أرق خصائصهم الفنية وأكثرها تواترا في تجاربهم الشعرية:

**نموت/ نحيا**

نحن إيقاظ /وفي النوم إن غبنا

إذا اهتزت الأرواح/ ترقصت الأشباح.

وكما يستعمل الشاعر النون مسبارا دلاليا يرجّع أنين النفس الشاكية المتضرعة والأوابة المناجية، يستوقفنا مسبار دلالي آخر في صوت الغين الذي يتردد في القصيدة حيث الغياب والتغريد والغناء. وللغين عند المتصوفة إشعاعاتها الدّلالية وكأن البعد الذي يشكوه الشاعر ما كان ليكون لولا الغين ومعني الغين نستشفه من قوله عليه الصلاة والسلام "إنه ليغان على قلبي فاستغفرا للّه وأتوب إليه في اليوم مائة مرة. وكأن الشاعر يقول: كل إنسان معرض إلى أن يغان على قلبه أي أن يتغشاه الشهود وتطوف بذهنه خواطر السوء وتبقى الرّحمة الإلهية وحدها تحمي المرحومين من التردّي في نار النفس الأمّارة بالسوء ثم يطالعنا الشاعر في هذا المشهد الجديد من نونيته

**أنلزمها بالصبر وهي مشوقة. . . . . . .**

ووحده التكرار قد يطوق "هجمات صواعق الحق التي لا تبقي ولا تذر، فالعالم عالم أشباح، وكل ما عليه من خلق دائر متحرك قائم باللّه لابنفسه وقد علق قلب صاحب السكر بما هو أهم من الحركة والسكون، إنه تجلي الحق وأخذه إياه أخذ عزيز مقتدر.

وهذا التناسخ بين المعاني هو ما عناه أبو مدين التلمساني في هذا المقبوس الشعري الذي يرفع الحبّ فوق كل معنى.

**أهـــل المحبـــة بـــالمحبوب قـــد شـــغلوا**

**وفي محبّتـــه أرواحهـــم بـــذلوا**

**وخرّبـــوا كـــل مـــا يغنـــى وقـــد عمـــروا**

**مـــا كـــان يبقـــى فيـــا حســـن الـــذي عملـــواُ**

**لم تلـــههم زينـــة الـــدنيا وزُخرُفهـــا**

**ولا جناهـــا ولا حلـــي ولا حُلَـــلُ**

**هـــاموا علـــى الكـــون مـــن وجـــد ومـــن طـــرب**
**ومـــا اســـتقل بهـــم ربـــعٌ ولا طلَـــلُ**
**داعـــي التشـــوف نـــاداهم وأقلقهـــم**
**فكيـــف يهنـــو ونـــار الشـــوق تشـــتعل**
**مـــن أول الليـــل قـــد ســـارت عـــزائمهم**
**وفي خيـــام المحبـــوب قـــد نزلـــوا**
**وافـــت لهـــم خلـــع التشـــريف يُحملـــها**
**عـــرف النّســـيم الـــذي مـــن نشـــرها ثملُـــوا**
**هـــم الأحبـــة أدنـــاهم لأنهـــم**
**عـــن خدمـــة الصَّـــمد المحبـــوب مـــا غفلـــوا**
**ســـبحان مـــن خصّـــهم بـــالقرب حـــين قضُـــوا[4]**

وَلِكَـيْ نقـف علـى هـذا التركيـب التخيلـي يجـب أن نحـرص علـى النفـاذ إلى الجـوهر الشعري ولن يتم لنا ذلك إلا إذا تجاوزنا صيغ الشراح الذين فكّكوا كلية أجمل ما في النص الصوفي هو بنيته التي جاءته من هذا التراسل بين الأغراض إذ ليس جديدا الوقوف على الإسقاطات الرمزية داخل النص ولكن الجديد هو أن نتخذ هذه الإسقاطات مسابير دلالية تحيلنا على النشاط التخييلي الذي يركب المحسوس صوب "الجوهر الأنثوي" في دلالته الخصبة على حبّة الحقيقي الذي انتهى فيه إلى مبدأ الوحدة الجوهرية الشاملة.

ولأن المرأة جوهر معنوي في عرف الشاعر الصوفي فهو حريص على إغفال صورتها، وتنكير عواطفها مكتفيا بوصف حبّه العظيم لها، وتصوير لوعته عليها، وحين نتساءل عن وجود واقعي لهذه المرأة لا نظفر بما يغرينا بأننا أمام امرأة موجودة في الواقع الحقيقي.

وفي هذا النص الغنائي الذي يرفل في ثوب الطبيعة القشيب تقرأ أجمل الإشارات إلى معان يبدو التعبير عنها ضربا من المجازفة لاستغراقها في متاهات العرفان الصوفي بطبيعته الذوقية المستعصية المعاني حقيقة وحدة الوجود. التي يصدر عنها جهارة في قوله، معولا على قاموس الطبيعة من طير ورعد برق يمرّر عبرها نغمة الهوى. بضرب من التراسل الفني القادر وحده على احتضان غرابة هذه المعاني الروحية للمتصوفة، لذلك نسجل دوران لغة المتصوفة على الحكمة المقدسة والتجلي الإلهي في الصور والتضايق بين الفعل والانفعال، " بنسق

أشـرب الكـون تصـورا لـوا حديـة الوجـود، سـواء في شـكلها الميتـافيزيقي المجـرّد، أو في مظهرها الوجداني المتدفق بالصور والمجازات" [5]

وكما تراسل الحب مع الطبيعة توحدت ملامح الخمر بملامح الحبيب فأصبحت تعني عند الشاعر نشوة الانتشاء بالحبيب كما غدا توهجها يحمل طاقة من نورانيته المتغضّنة في رحم التجربة الذوقية. وقد انصهرت في بؤرة الشعرية العربية التي نشأت تجربة المتصوفة في أحضانها ولكنها صنعت لنفسها أيضا ملامحها الخاصة.

**هوامش البحث:**

[1] نونية أبي مدين التلمساني. القصيدة مخطوطة ضمن مجموعة مكتبة الأزهر365/622 على7617.

[2] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص: 171.

[3] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند المتصوفة ص 349/348.

[4] ديوان أبي مدين شعيب التلمساني ، ص: 68.

[5] د. عاطف جوده نصر، المرجع السابق، ص: 289.